العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية شعبة الإعلام

سلسلة دراسات إنطباعية

في

نهج البلاغة

٢

الأديب علي الخباز

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية/ شعبة الإعلام
كربلاء المقدسة/ ص.ب (٢٣٣)/ هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٤
www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: سلسلة قراءات إنطباعية في نهج البلاغة/ ٢.

الكاتب: الأديب علي الخباز.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية.في العتبة العباسية المقدسة.

التصميم والإخراج الطباعي: رائد الأسدي/ .أحمد السيلاوي.

المطبعة: دار الضيافة.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

ربيع الأول ١٤٣٠هـ/ آذار ٢٠٠٩م

الاستدلالية في نهج البلاغة

تم طرح مفهوم الاستدلال بداية كنموذج منطقي، إذ وجد في التفكير اليوناني، حيث أسس انطلاقته الأولى، ثم أثار الاهتمام بعد التطورات الألسنية المعاصرة معتمداً على المفاهيمية والتقنية.. ثم شهدت المدارس الرمزية اقتحام نموذج الاستدلال الذي به يتم البت في القضايا بغية الوصول إلى النتائج المستخلصة.

وقد أثبتت الدراسات المنطقية ان الاستدلال البرهاني لا يُعالج القضايا الطبيعية للحالات الممكنة البسيطة والمرنة.. بل هناك مجالات معقدة من حيث بُنية أنظمتها، والمتداخلة من حيث مكوناتها المعرفية، وهذا ما نراه جلياً في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ**».

الجهل: يستلزم القول بالتشخيص الجسماني، وهو يستلزم صحة الإشارة إليه تعالى عن ذلك، ومعنى حده: هو إنما تشير الى شيء إذا كان منك في جهة، فأنت تتوجه إليه بإشارتك، ومن كان في جهة فهو منقطع عن غيرها، فيكون محدودا أي له طرف ينتهي إليه، فمن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده: أي أحصى وأحاط بذلك المحدود لأن الحد حاصر لمحدوده.

ويرى معظم النقاد: ان مفهوم الاستدلال مفهوم فلسفي: وهو أسلوب الخطاب الاحتجاجي الذي يعتمد البرهان للتوصل الى النتائج المتيقنة، كقوله عليه السلام:

«فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا الا إبليسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ وتَعَزَّزَ بخِلْقَةِ النَّارِ واسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً للسُّخْطَةِ واسْتِتْماماً للْبَلِيَّةِ وإنْجَازاً للْعِدَةِ فَقَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

الشقوة: ماحتم عليه من الشقاء وهو ضد السعادة، وهو النصب الدائم، والتعب الملازم، وتعزز بخلقة النار: استكباره مقدار نفسه بسبب أنه خلق من جوهر لطيف، ومادة أعلى من مادة الصلصال، والصلصال: الطين الحر خلط بالرمل أو الطين والمراد به هنا: مادة الأرض التي خُلق منها آدم عليه السلام، فجوهر ما خُلق منه الجن وهم من الجواهر اللطيفة، أعلى من جوهر ما خُلق منه الإنسان، والنظرة: الإنتظار به حياً ما دام الإنسان عامراً للأرض متمتعاً بالوجود.

وقسّم النقاد الاساليب الاستدلالية الى قسمين:

أولاً: الأساليب البرهانية: والتي تعتمد على برهانية خالصة، كالتي في قوله عليه السلام:

«لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ ودُوَلِ الضَّلالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ والْبَاطِلِ مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ».

موسى عليه السلام لا يخاف على حياته، ولكنه يخاف من غلبة الباطل، وهو أحسن تفسير لقوله تعالى:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى﴾ وأفضل تبرئة لنبي الله تعالى من الشك في أمره.

ثانياً: الأساليب الاستدلالية الطبيعية: والتي تمتلك فعالية تداولية، وطابعها الفكري متعدد الجوانب، من أجل الإقناع القائم على بلوغ الاستنتاج، والنتائج فيها ليست مجرد

افصاح او تصريح، وتحظى الذات المستدلة في الخطاب، لإثبات دعوى أو إبطالها، ومثل هذا الإستقصاء لم يعد ينفع له المنطق التقليدي، كقوله عليه السلام:

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْك وإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْت هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا والَّتِي والله لابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْت مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ».

إن تكلم بطلب الخلافة، رماه من لا يعرف حقيقة قصده بالحرص على السلطان، وإن سكت وهم يعلمونه أهلاً للخلافة يرمونه بالجزع من الموت في طلب حقه، أي: بعُد ظن مَنْ يرميني بالجزع، بعد ما ركبتُ الشدائد وقاسيتُ المخاطر صغيرها وكبيرها، وأصل المثل **(**اللتيا والتي**)** قيل أن رجلاً تزوج بامرأة قصيرة سيئة الخلق، فشقي بعشرتها، ثم طلقها وتزوج أخرى طويلة، فكان شقاؤه بها أشد فطلقها، وقال: لا أتزوج **(**بعد اللتيا والتي**)** يشير بالأولى الى القصيرة، وبالثانية الى الطويلة، فصارت مثلا في الشدائد والمصاعب صغيرها وكبيرها.

ومصطلح الاستدلال عند أهل اللغة: هو واحد من التصورات الإجرائية للمنطق وهو لايعني الإستنباط بطبيعة الحال، وإنما هو نسق من العمليات الذهنية التي تمكن فاعلاً متكلماً يوجد في سياق ما، من اقتراح تمثيلاته لمستمع ما، بواسطة الخطاب:

أولاً: منطق الذوات المتكلمة، مثل قوله عليه السلام:

«أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياة الدُّنْيا مِنَ الآخِرَة عِوَضاً وبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ومِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ».

دوران الأعين: اضطرابها من الجزع، ومن غمره الموت يدور بصره، فإنهم يريدون من غمرة الموت الشدة التي تنتهي إليه يشير إلى قوله تعالى:

﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

ثانياً: منطق الموضوعات، وبعبارة أخرى فإن هذا المنطق يتمثل في مجموعة من العمليات المنطقية الخطابية التي تمكننا من توليد الخطابات والتمثيلات وإنتاجها.

ملاحظة مهمة

إن دراسة فن الاستدلال ضمن معطيات التاريخ، ستكون صعبة، فاللغة الاستدلالية في خطاب ألقي قبل (١٤٠٠) عام يحمل في وقته لغة استدلالية احتمالية، لكون القارئ لا يعلم بالأحداث اللاحقة، ولكن قراءة الاستدلال بعد عدة قرون ستحول الاستدلالية الاحتمالية الى استدلالية يقينية، لكون المتلقي الآن صاحب علم بالأحداث اللاحقة، وأدرك غايتها، كما جاء في قوله عليه السلام:

«كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ الله عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا ومِنْ تَحْتِهَا وغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا».

الجؤجؤ: الصدر من جثم إذا وقع على صدره ،أو تلبد بالأرض، وقد وقع ما وعد به أمير المؤمنين عليه السلام فقد غرقت البصرة، عندما جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، ولم يبقَ ظاهراً منها إلا مسجدها.

البسيكولوجيا في نهج البلاغة

ربما التعامل مع المصطلحات الحديثة يسبب بعض الإرباك في عملية التلقي، وهذا سبب رئيسي من أسباب اهمالها دون حساب لأمر يبعد عنا فرصة الكشف عن حيوية الكثير من الموروث الإنساني الثري، ونهج البلاغة من أكثر المواريث إبداعا يتوائم مع مساحة كل مستحدث، والمحتوى البسيكولوجي هو منهج خاص بالشخصيات والمواضيع الكلامية، أي إنه يتحرك داخل المنهج التاريخي، فيذكر لنا تكوينات افعال لبعض الرموز سلبا أو ايجابا من أجل الإستدلال الوعظي أو التحفيزي بغض النظر عن ارتباطه بمنهج السيرة الذاتية للشخصية، كقوله عليه السلام:

«أُنْبِئْتُ بُسْراً قَد اطَّلَعَ الْيَمَنَ وإنِّي والله لاظُنُّ أنَّ هَؤُلاء الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وخِيَانَتِكُمْ وبِصَلاحِهِمْ فِي بِلادِهِمْ وفَسَادِكُمْ فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِه».

اطلع اليمن: بلغها وتمكن فيها وغشيها بجيشه، سيُدالون منكم: ستكون لهم الدولة بدلكم بذلك السبب القوي، وهو اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم، القعب: القدح الضخم.

رغم ان بعض النقاد اختلط عليهم الامر فعدوه ضمن هذه المناهج السيرية، ومنهم من رأى انها تعني شيئا من جماليات علم النفس، وحسنات المحتوى البسيكولوجي انه سيكون لنا رأيا داخل المرجع النصي دون الحاجة لما هو خارجي بالبحث عن معلومات تاريخية سياسية واجتماعية متعلقة بحياة الرموز، فهناك نتائج متعلقة بأفعال شخصيات كثيرة يذكرها الإمام علي عليه السلام، منها كتابه لمعاوية:

«فَإِنَّ الْبَغْيَ والزُّورَ يُوتغَانِ الْمَرْءَ فِي دينه ودُنْيَاهُ ويُبْدِيَانِ خَلله عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ وقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى الله فَأَكْذَبَهُمْ فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِه ويَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِه فَلَمْ يُجَاذِبْهُ».

يذيعان بالمرء: يشهرانه ويفضحانه، ما قضى فواته: هو دم عثمان والانتصار له، ومعاوية يعلم انه لا يدركه لانقضاء الأمر بموت عثمان، فأكذبهم: أولئك الذين فتحوا الفتنة بطلب دم عثمان، يريد بهم أصحاب الجمل.

وثمة أقوال كشفت عن مساحات نفسية، والتي لابد أن تكشف عن أحداث ووقائع معينة ليستنتج من خلالها لفعل مستقبلي آت.. كوصيته عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام:

«واعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ والْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ وأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ».

كؤودا: صعبة المرتقى، المخف: الذي خفف حمله، والمثقل: بعكسه وهو من اثقل ظهره بالاوزار، فارتد لنفسك: أي ابعث رائدا من طيبات الاعمال، توقفك الثقة به على جودة المنزل.

لتمنحنا مثل هذه المكاشفات متعة المتابعة، وتبرز فيها تنوعات الأساليب ان تعرض من خلالها مثل هذه الشخصيات والوقائع، وهذا يعني لنا ان المحتوى البسيكولوجي يهتم بالمضمونية القصدية، سوى أن تكون ذاتية أو موضوعية، وذاتية الإمام علي عليه السلام انصهرت في الموضوعية، يقول عليه السلام:

«وإنَّما هيَ نَفْسي أُرُوضُهَا بالتَّقْوَى لتَأْتِيَ آمنَةً يَوْمَ الْخَوْف الأكْبَر وتَثْبُتَ عَلَى جَوَانب الْمَزْلَق ولَوْ شئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّريقَ إلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَل ولُبَاب هَذَا الْقَمْح ونَسَائج هَذَا الْقَزِّ ولكنْ هَيْهَاتَ أنْ يَغْلبَني هَوَايَ ويَقُودَني جَشَعي إلَى تَخَيُّر الأطْعمَة ولَعَلَّ بالْحجَاز أوْ الْيَمَامَة مَنْ لا طَمَعَ لَهُ في الْقُرْص ولا عَهْدَ لَهُ بالشِّبَع».

اروّضها: اذللها. المزلق: موضع ما تخشى الزلة وهو الصراط.

لقد كان الإمام علي عليه السلام إماما عالي السلطان، واسع الإمكان، فلو أراد التمتع بأيّ اللذائذ شاء لم يمنعه مانع، وهو قوله ولو شئت لاهتديت..الخ، القز: الحرير. الجشع: شدة الحرص.

ونجد إن هذا المحتوى تشخيصي- يكشف الخلل، ويحرض على العلاج، وهو كمضمون دلالي يتوصل عبر تراكيب سردية تتوافق مع الرؤية القصدية المؤثرة، ويسهم قي العملية التوصيلية، إذ تشد الإنتباه عن ذكر الشخصيات والأحداث، كقوله عليه السلام في صفة من يتصدى للحكم وليس لذلك بأهل:

«إنَّ أبْغَضَ الْخَلائق إلَى الله رَجُلان رَجُلٌ وَكَلَهُ الله إلَى نَفْسه فَهُوَ جَائرٌ عَنْ قَصْد السَّبيل مَشْغُوفٌ بكَلام بدْعَة ودُعَاء ضَلالَة فَهُوَ فتْنَةٌ لمَن افْتَتَنَ به ضَالٌّ عَنْ هَدْي مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُضلٌّ لمَن اقْتَدَى به في حَيَاته وبَعْدَ وَفَاته حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْره رَهْنٌ بخَطيئَته».

وكله الى نفسه: تركه ونفسه، وهو كناية عن ذهابه خلف هواه فيما يعتقد، ولا يرجع إلى حقيقة من الدين، ولا يهتدي بدليل من الكتاب، فهذا جائر عن قصد السبيل وعادل عن جادته.

الحداثوية في نهج البلاغة

مفهوم الحداثة عند اغلب النقاد، هو تأكيد الشعرية الحديثة على البنية اللغوية، أي ترى أن اللغة الشعرية هي انتهاك لقانون اللغة المعيارية، كقول مولاي أبي الحسن عليه السلام في نهج البلاغة:

«حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا واطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا وأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا وأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ».

وناكرها هنا اسم فاعل من نكر الشيء كعلمه: أي جهله فأنكره، وقمص الفرس وغيره يقمص: إذا استن وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معا ويعجب، وفي المثل المضروب لضعيف لا حراك به وعزيز ذل (ما بالعير من قماص)، وإنما قال أرجل وليس للدابة إلا رجلان لأنه انزل اليدين منزلة الأرجل، لأن المشي على جميعها وقنصت بأحبلها أي اصطادت وأوقعت من اغتر بها في شباكها وحبالها، واقصدت قتلت مكانها من غير تأخير، وعلقت به وربطت بعنقه، اوهاق المنية جمع وهق: أي حبال الموت.

ويرى (موكاروفسكي) إن الحداثة بدائية وموجودة منذ أزل الشعر، ويراها (يوسف الخال) بأنها حركة إبداعية، بينما (ادونيس) يجدها رؤية إبداعية، ونرى أن مفهوم الحداثة من ابرز سمات التلقي من حيث التأثير، فالحداثة تعتبر إعادة نظرة شاملة في منظومة

المفهومات والنظام المعرفي هو ما يكوِّن صورة العالم في وعي الإنسان، ومن ثم يمكن أن يُقال ان قانونا جديدا يغير صياغة الأشياء في إطار تاريخي شامل، فهو إعادة نظر في المراجع والأدوات والقيم والمعايير، كقوله عليه السلام:

«وأُرْعِدَت الأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ ومُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ ونَكَالِ الْعِقَابِ ونَوَالِ الثَّوَابِ عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً ومَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً ومَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً ومُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً وكَائِنُونَ رُفَاتاً ومَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً ومَدِينُونَ جَزَاءً ومُمَيَّزُونَ حِسَاباً».

وارعدت: عرتها الرعدة، وزبرة الداعي: صوته وصيحته، ولا يقال زبره إلا إذا كان فيها زجر وانتهار، فأنها واحدة الزبر: أي الكلام الشديد، والمقابضة: المعاوضة أي مبادلة الجزاء الخير بالخير والشر بالشر، مربوبون: مملوكون، والاقتسار: الغلبة والقهر، أي أنهم كما خلقوا باقتدار الله سبحانه وتعالى وقوته، فهم مملوكون له بسطوة عزته لا خيرة لهم في ذلك، وإذا جاء الأجل قبضت أرواحهم إليه، بما يحضر عند الأجل من مرهقات الأرواح، والقوى المسلطة على الفناء، واحتضر فلان حضرته الملائكة تقبض روحه.

ان ثمة تناقضات كبيرة ظهرت في مفهوم معنى الحداثة، حتى أصبحت مسألة ذات إشكالية يقول الباحث الدكتور صالح جواد آل طعمة: (ان الحداثة ليست أحادية اللغة وليست أحادية الأصل، ولا ترتبط بمرحلة زمنية واحدة بل هي متعددة اللغات ومتعددة الأصول، ونتاج مراحل زمنية متداخلة)، ولكن الاتفاق الكلي فرَّق بين الحداثة ومصطلح التجديد، كما هو مفهوم عند الكثير.. لان لكل زمن جديده، بينما الحداثة ليست زمانية. وهناك نعوت كثيرة بلا جدوى كقول خالدة سعيد التي تراها: (ثورة فكرية). وكمال أبو ديب: (انقطاع عن الماضي وانفصام عن الحاضر) والحداثوية الحقة كما يراها معظم النقاد: ليست سلطوية بل هي أدب الثقافة السائدة هي أدب اللاسلطة، وهي رؤية تباين السائد

والمألوف، كقول الإمام علي عليه السلام:

«وعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِه يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ ويُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وفِيهَا وَقَعَ ويَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وبَيْنَهَا اضْطَجَعَ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ والْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ لا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ولا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ وذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ».

عطف الحق: أي حمل الحق على رغباته، أي لا يعرف حقاً إلا إياها.

وانساق الوهم الحداثوي إلى مفهوم الكتابة التجريدية، من خلال عملية تسمى (تفجير اللغة) والبحث عن لغة تجريبية منهكة بحجة اللغة الجديدة، لا يربطها رابط اجتماعي، فتوصل الهوس الحداثوي إلى نفي الشكل على أساس انه اكتشف لنا النص المفتوح، وهو ليس جديدا فقد قال الإمام علي عليه السلام:

«فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ وانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلائِقُ الأُمْنِيَّةِ ودَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ والسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وشَهِيدٌ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا».

المفظعات: من أفظع الأمر إذا اشتد، ويقال: أفظع الرجل للمجهول، إذا نزلت به الشدة، الورد: بالكسر الأصل فيه الماء يورد للري، والمراد به الموت أو المحشر.

ومثل هذه الاستعارة والكناية والمجاز تعمل على المستوى الدلالي (معنى المعنى) كما عبر عنها الجرجاني، وعلى مستوى التنويع الإيقاعي يسمى (بالجرس الداخلي.. موسيقى النص) ومستوى الرؤية واستخدام الإشارة.. ومشكلة الحداثة كمصطلح هو انه يتبع لرؤية فردية حتى صار لكل كاتب مفهومه الخاص بالحداثة، لكونه مصطلح غير متفق عليه في الفهم والتصور، واعتبروا هذا التشظي إحدى سمات الحداثة (عملية خلق

التعددية) وما يميز الحداثة الحقيقية الوعي الذاتي النافذ للأشياء لكنه وعي شاهد على زمانه ومكانه، وهي استجابة واعية لكل التراث الإنساني، كقول الإمام علي عليه السلام في صفة خلق الإنسان:

«أَمْ هَذَا الَّذي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ وشُغُفِ الأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقاً وعَلَقَةً مِحَاقاً وجَنِيناً ورَاضِعاً ووَلِيداً ويَافِعاً ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً ولِسَاناً لافِظاً وبَصَراً لاحِظاً لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً ويُقَصِّرَ مُزْدَجِراً حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ واسْتَوَى مِثَالُهُ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وخَبَطَ سَادِراً مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ».

شغف الأستار: جمع شغاف هو في الأصل غلاف استعاره للمشيم، دهاقا: متتابعا، ودهقها: أي صبها بقوة، وعلقة محاقا: أي خفي فيها، ومحق كل شكل وصورة والجنين الولد بعد تصويره مادام في بطن أمه، واليافع: الغلام راهق العشرين، ويقصر أي يكف عن الرذائل ممتنعا عنها بالعقل والروية.

الرؤية في نهج البلاغة

أخذت الرؤية حيزا كبيرا في اغلب الدراسات النقدية، حيث يرى معظم النقاد؛ أن نمط الرؤية يحدد طبيعة النص. وأثارت هذه القضية جدلا واسعاً. فالرؤية هي الطريقة التي يُعبِّر بها المبدع عن افكاره ومشاعره واحاسيسه. ويرى بعض النقاد: انها تتم عبر ثلاثة محاور أساسية؛ الاول: القضايا الذاتية والموضوعية، التي يعكسها المبدع، وتقع ضمن اطار الحواس، كقوله عليه السلام:

«**واخْتَلَفَ النَّجْرُ، وتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وضَاقَ الْمَخْرَجُ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ**»

والنَجْر: الأصل، أي اختلفت الأصول، أي كل يرجع إلى أصلٍ يظنه مرجع حق، وما هو من الحق في شيء. وأما الثاني: فيتمثل في طبيعة الشكل الجمالي، الذي جُسّدت فيه الموضوعات كإطار عام. وأما المحور الثالث: هو الموقف الفكري، قال عليه السلام:

«**عِبَادَ الله إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ الله إِلَيْهِ، عَبْداً أَعَانَهُ الله عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ**»

فاستشعر: لبس الشعار، وهو ما يلي البدن من اللباس. وتجلبب: وهو ما يكون فوق جميع الثياب. والحزن: العجز عن الوفاء بالواجب، فهو قلبي لا يظهر له أثر في العمل الظاهر، أما الخوف فيظهر أثره في البعد عما يغضب الله عز وجل.

فالرؤية تحدِّد لنا نوع البناء الجمالي، ونمط العلاقات، وتُسفر عن الموقف الخاص الفكري، فهل هناك ارتباط وثيق بين الرؤية الجمالية والفكرية؟

فالموقف الجمالي يرتبط بمنظور المبدع، بينما الموقف الفكري يرتبط بموقفه. ومن ميزة الرؤية الخاصة بنهج البلاغة، أن مبدعه عليه السلام يتحدث دائما بضمير المتكلم، فهو يكون بمركز الأحداث، مما يعطي لجمالية الشكل، بُعداً واقعياً معاشاً ومعاصراً، ينم عن صدق الإحساس تجاه تلك الأحداث، وهذا يتمحور داخل العرض الفكري، مستعيناً بمشاعره وأحاسيسه ورؤاه، كقوله عليه السلام:

«**فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ والْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ لا يَعْرِفُ بَابَ الْـهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ولا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ وذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ**».

فهو ينقل واقعاً عاشه، وأحس به، فكوَّن رؤياه. ومن خصوصيات النهج أنه تمحور من خلال الغيبيات المستمدة من الوحي الإلهي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فألهمه إليه باعتباره وريثه الشرعي حيث تحدَّث عن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«**ومَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلابِهِمْ بِبَعِيدٍ. واللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلا وهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوهُ ومَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ ولا شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ ولا جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلا وقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ ووَ اللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ ولا أُصْفِيتُمْ بِهِ وحُرِمُوهُ**»

يريد أن حالهم كحال من سبقهم من السابقين، وأن من السابقين من اهتدى بهدي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنجا من سوء عاقبة ما كان فيه، ومنهم من جهل فحلَّ به من النكال ما حل.

فتتميز الرؤية المعروضة لنهج البلاغة برؤيا غالباً ما تكون حادة لكونها عاشت تناقضات واقع مريض فتولَّدت مجموعة وقائع ارتبطت بحياة المبدع ضمن الإطار العام.

وهذه الوقائع كوَّنت عمق الرؤية في ميزتين مهمتين سارتا في نمط واحد، وهما؛ الخسارة: وتعني هنا التضحية. وثمة حزن يساير قوة الشكيمة، فالضعف ليس ناتجاً عن خور بل عن قوة قال عليه السلام:

«مَا والَّذي نَفْسي بِيَده لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاء الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ منْكُمْ ولَكنْ لإِسْرَاعهمْ إِلَى بَاطلِ صَاحبِهِمْ وإِبْطَائكُمْ عَنْ حَقِّي ولَقَدْ أَصْبَحَت الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتهَا وأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعيَّتي اسْتَنْفَرْتُكُمْ للْجهَاد فَلَمْ تَنْفرُوا وأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ودَعَوْتُكُمْ سِرّاً وجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا ونَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا».

وتلك رؤية صعبة لا يمكن التفكير فيها إلا بوضع خاص وإطار تضحوي خاص، فهناك أزمة اجتماعية بسبب هذا التباين الكبير بين الذي يطمح له مبدع النص والواقع الحياتي المعاش فتراه يحاول جاهداً بث رؤاه بما يبذر الأمل في مجتمعه محفزاً له النهوض برؤية تمتلك مقومات متنوعة، منها القوة الإيمانية والوجدانية حيث قال عليه السلام في صفة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله:

«لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ منْكُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وخُدُودِهِمْ ويَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ منْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ».

إضافة إلى شعوره بالعزلة حفاظاً على قيم أسمى ناتجة عن وصايا ملهمه الحقيقي وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعرفته المسبقة لما يحدث فهو يقول لهم:

«تَرِبَتْ أَيْديكُمْ يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا كُلَّمَا جُمِعَتْ منْ جَانب تَفَرَّقَتْ منْ آخَرَ والله لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وحَمِيَ الضِّرَابُ قَد انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَة عَنْ قُبُلِهَا وإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَة منْ رَبِّي ومنْهَاجٍ منْ نَبِيِّي».

إخال: أظن، وحمس: اشتد، والوغى: الحرب، وانفراج المرأة عن قبلها أو عندما يشرع عليها سلاح.

ولذلك نجد أن رؤية الإمام في نهج البلاغة امتلكت حساسية في الكشف عن عالم رحب متناقض حتى أصبحت هذه الرؤية ذاتا مؤرِّخة بالأحداث، اعطتنا محاور مهمة عن شخوص، ورموز، وزمان، ومكان، ووقائع مرعبة، مرَّ بها التاريخ فكشفت هذه الرؤية عمق التجربة الشخصية لقائد تاريخي حملت رؤاه مسائل العصر. ونجد أن وعي الإمام عليه السلام بلور الرؤية ليس بوعي مجرد، إنما هو وعي مقترن بمفاهيم أخلاقية واجتماعية.

المحور الزمني في نهج البلاغة

يبقى للحضور الزمني اهمية ضرورية في جميع انواع البلاغة والادب. ولا يمكن عزله عن السياق العام. وفي محافل الخطابة والابداع، فهو يتفاعل كعنصر اساسي ومؤثر في العملية السردية بصفته المباشرة وغير المباشرة. واتخذ المكان عند اغلب النقاد شخصية زمانية، فأبدعوا مصطلح (الزمكانية) كما عند (محمد برادة - خالدة سعيد - عبد الملك مرتاض...) وورد في مذهب النقاد العراقيين مصطلح (جغرافية الزمن) مثلا جاءت في عنونة الخطب والوصايا في نهج البلاغة مرتبطة ببعض الاحداث المكانية التي تشكل ترابطا زمانيا، فهناك خطبته يوم الجمل حين أرسل ابْن عباس الى الزبير. وكلامه عليه السلام لولده محمد بن الحنفية حين أعطاه راية الجمل.

وهناك خطب توثق خروجه بصفين والنهروان، فقد وجد الزمن قبل وجود الإنسان نفسه. والموجودات جميعها تعرف بفضل عامل الزمان. والمفهوم الزماني مفهوم يعتبر من اعقد المفاهيم وأكثرها تناولا في الفلسفة والعلوم والرياضيات والأدب. وفي لغة المعاجم مفهوم يقع على كل جمع من الأوقات يشتق من لفظه ومعناه من الأزمنة بعدة معانٍ، فيقال:(هذا رجل ابن هذا الزمان، وقوم من أهل ذلك الزمان) وفي نهج البلاغة تم التعامل مع الزمن على عدة محاور منها (التعامل المباشر) مع لفظة الزمان، كقوله عليه السلام:

«**وَذَلِكَ زَمَانٌ لا يَنْجُو فِيهِ إِلا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ وإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ**»

والنوَمة: كثير النوم، فيريد بالمعنى المقصود ببعده عن مشاركة الأشرار في شرورهم. ويستخدم الإمام جميع المتعلقات اللفظية الزمانية مثل قولهعليه السلام:

«**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ وزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً**».

والعنود: الجائر من عَنِد، والكنود: الكفور، وسوء الطباع يحملهم على عدّ المحسن مسيئا، أو نجد لفظة: الساعة، كما في قولهعليه السلام:

«وأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا».

ولفظة: (يوم) كقولهعليه السلام:

«**أَلا وإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وغَداً السِّبَاقَ**»

او كقولهعليه السلام:

«**وإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ**»

ونجد ايضا من ضمن المتعلقات الزمانية: (مواسم - الصباح - المساء - الليل - الدنيا والآخرة) كقولهعليه السلام:

«**ومِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بعَمَلِ الآخِرَةِ ولا يَطْلُبُ الآخِرَةَ بعَمَلِ الدُّنْيَا**».

كثرت المصطلحات المتوالدة والمتشاكلة مع مفهوم الزمن اثر اختلاف الزمانيات، وهناك من جاوزها اللفظ مثل (التزامن والتعاقب والمدة ورسالة الزمان). وفرّق الباحثون بين مصطلحي الزمان والمكان. ولو وقفنا عند قول الإمام عليعليه السلام:

«**مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي**»

لركزنا على ماهية الوعي الزماني، اذ وردت المدة في عدة معان منها:

«**ويَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ**»

و(التعاقب) كقوله عليه السلام:

«وإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الأَمَلِ».

واستخدم الزمن في اتجاهي التوافق والتنافر كقوله عليه السلام في التنافر:

«وإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَابَ وغَداً حِسَابٌ ولا عَمَلَ».

او من التوافقية:

«الْحَمْدُ لله كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وغَسَقَ».

ونجد ان في لغة نهج البلاغة متسع لمساحة الزمان المطلق، عبر مواضيع المناجاة، والتي هي كثيرة فيها وصف القيامة والصراط ويوم الحساب. ثم نجد انفتاحات على الافعال التي ترسم الزمن كالفعل الماضي والحاضر والمستقبل. وبعد هذا نجد موضوعا كبيرا يتحرك حول حيثيات زمانية متنوعة داخل حيز النبوءات التي اكتظ بها نهج البلاغة، والمعروف عن النبوءة هي زمن متحرك مفتوح يكوّن رسالة الى متلقٍ ممتد عبر الاجيال كقوله عليه السلام قبل بدء النهروان:

«مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ والله لا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ ولا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ».

المفهوم الحواري في نهج البلاغة

إن المعرفة المؤسسة على قراءة واعية بحواريات النص، توصل إلى فهم أعمق، وتلمس جماليات النص وخصوصياته وتذوقه بشكل صحيح، وهي تعتبر إضاءة رؤيوية منطلقة من داخل الخطاب النصي. والحوار اصطلاحا: هو التواصل الكلامي أو التحادثي المباشر أو غير المباشر، وهو طريقة تقنية حديثة مستخدمة في إعداد النص الخطابي بغية تحقيق عمق تأثيري.. أما مؤشراته، منها لفظية، كقوله عليه السلام:

«إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لا تَعْقِلُونَ».

أي: لا تهتدون لفهمه فتتحيرون وتتردون، والمألوسة: المخلوطة بمس الجنون.

وتساعد مثل هذه الأنماط الكلامية على توصيل الفكرة وتركيزها، وتركيز توظيفها، وهي من الأنماط الفكرية التي تتطلب مهارة عالية في الإقناع، لإبراز الرأي والموقف، أي أنها من الطرق المنطقية بآداب البحث والمناظرة.. ومنها ما يأتي بحوار مباشر، فقد جاء في نهج البلاغة، يقول عبد الله بن عباس:

«دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يخصف نعله فقال لي: - ما قيمة هذا النعل؟ قلتُ: لا قيمة لها.. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمرتكم، لولا أن أقيم حقا أو ادفع باطلا».

وتمنح الحواريات حيوية وحركة واستمرار من خلال اللامباشرة أيضا، كالتي وردت في نهج البلاغة بصيغ غير مباشرة، تتحدث عن حوار دار بين الله سبحانه وتعالى وباقي مخلوقاته، كآدم وإبليس الذي تعزز بخلقة النار واستهون خلقة الصلصال، فقال تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾ الحجر / ٣٧-٣٨

ووردت حواريات في النهج تحمل النمطين، {حين وردته أنباء السقيفة قال عليه السلام لبعض أنصاره: ما قالت الأنصار؟ فقالوا: - قالت منا أمير ومنكم أمير.. فقال عليه السلام: -

«**فَهَلا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ. قَالُوا:** ومَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟ **فَقَال عليه السلام: لَوْ كَانَ الإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ. ثُمَّ** قال عليه السلام: **فَمَا ذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قَالُوا:** احْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله. **فَقال عليه السلام: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ**».

يرى بعض النقاد: إن المحاورة هي اقرب صيغة مشابهة للواقع، وتعد شكلا من أشكال التعبير الإنساني. ويرى البعض الآخر: إن لغة دون حوار تفقد وظيفة التواصل. وقد ورد في نهج البلاغة وتحديدا في معركة الجمل: «قال احد أصحابه: ـ مولاي وددت أن أخي فلانا كان شاهدنا يرى ما نصرك الله به على أعدائك، قال عليه السلام: ـ أهوى أخيك معنا ؟ قال: - نعم. فقال عليه السلام: - فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان) هوى أخيك: يقصد ميله ومحبته. ويرعف: يجود بهم، كما يجود الأنف بالرعاف.

ينبهنا الدكتور فاتح عبد السلام في أهمية الحوار كنمط وتركيب وعلاقة اكتسبت أهميتها من أهمية المبدع، وبهذا المعنى بلورت لنا شخصية الإمام تلك المحاورات التي تعكس الشكل الإبداعي في تعميق رؤى الإمام الكاشفة للكثير من حيثيات الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري، وقد اقترح تسمية الحوار بـ(التناوبي) لكون التناوب سمة إجرائية ظاهرة تؤدي إلى نمط مجرد، أي: حوار ينشأ بفعل الموقف الذي يضع المتحاورين في وضع معين داخل المشهد. والحوار هنا يعمق من تكوينه، ومعنى أن يكون الحوار حديثا إجرائيا متأسسا على رد فعل سريع أو إصابة سهلة، لا مجال معه لتعددية التأويل، ومعنى هذا: انه قد جرّدها من الرؤيا، وابعد عنها الموقف الرؤيوي.

بينما يرى الشيخ محمد عبده: إن تلك الحوارات مجازات عن دلائل واضحة وحجج قويمة مبددة للوهم، وان خفي مدركها. وعيّن الشريف الرضي قطبين من أقطاب ثلاثة، تحتمل القيم التحاورية والخطاب البلاغي للإمام عليه السلام الخطب والأوامر والحكم والمواعظ. وقد ورد في حديث الخطبة الشقشقية:

«**وقَامَ إِلَيْه رَجُلٌ مِنْ أَهلِ السَّوَادِ عندَ بُلوغه إِلَى هَذَا المَوْضعِ مِنْ خُطْبَته فَنَاوَلَهُ كتَاباً قيلَ إِنَّ فيه مَسَائلَ كَانَ يُريدُ الإِجَابَةَ عَنْهَا فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فيه [فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قرَاءَته] قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَميرَ المُؤْمنينَ لَو اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ. فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ تلْكَ شقْشقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَوَالله مَا أَسَفْتُ عَلَى كَلامٍ قَطُّ كَأَسَفي عَلَى هَذَا الْكَلامِ الا يَكُونَ أَميرُ المؤمنين عليه السلام بَلَغَ منْهُ حَيْثُ أَرَادَ**».

والشقشقة: كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج.

نجد حتى تناول الكتاب من قبل رجل من أهل السواد، كان حوارا، والتناوب كان باستجابة الإمام للقراءة، وصرف النظر عن الخطبة. وهذا المشهد أخذني كثيرا إلى تأويل

محاورة خفية قد لا يدرك كنهها بسهولة. اعتقد إن مثل هؤلاء الأكاديميين قد تاهوا في مسألة طول وقصر المحاورة، فاعتبروا إن الوصف العميق، وإبداء الرأي، وتحديد وجهة النظر الجلية المعبرة عن موقف أو التزام، لا تأتي إلا عن تعبيرات وصفية تحليلية طويلة تدور عين المحاور بشكل بطيء بتأمل. واعتقد إن التكثيف الفني لهذه الجمل الحوارية قد أهملت من قبلهم وإلا لنتأمل في موقف قيل لأمير المؤمنين عليه السلام يوم مسيره إلى الخوارج:

«**إن سرت يا أمير المؤمنين، في هذا الوقت، خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام: أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ**».

هناك تكثيف واختصار وضغط يسميه (جيرار جينيف): الحوار الموجز. وثمة إيجاز قريب وإيجاز بعيد، ويأتيان في سياقات الماضي والحاضر والمستقبل، كقوله عليه السلام:

«**فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ**».

وحمارة القيظ: شدة الحر. وهناك صيغة من صيغ التحاور هي المحاورة الخفية، يتطلب استدعاء المعنى القصدي من الحوار مثل محاورته عليه السلام مع أبي سفيان حول المبايعة، أو محاورته لما أشار إليه أن لا يتبع طلحة والزبير. وتتطلب مثل هذه الصيغة استحضار دال تضميني فلو انتبهنا إلى الجملة المكونة لوجدنا هناك مفردة (يزعم.. أقر) وتنطلق صيغ التحاور من خلال مفردات مثل (فليأت.. فليحضر) وثمة حوارات كثيرة أخرى.

الموضوعاتية في نهج البلاغة

يعتبر علم الموضوع من اقرب الطرق لاكتشاف بعض اوجه تكوين النص المنجز. وقد دارت حول مصطلح (موضوع) خلال عقود طويلة نقاشات مصطلحية تكشف دوافع المفهوم الشامل. صحيح ان الدوافع تقدم تعريفات جوهرية لفن النص، لكن الكثير من النقاد يرون إن الموضوع عنصر بنيوي (للبنية). بينما بعض النقاد يقولون: ان الدافع هو اصغر جزء من المادة الموضوعية، وهو عنصر وسيط بين الطبيعة والثقافة. هناك موضوعات متعددة كثيرة وردت في نهج البلاغة منها موضوعة الحرب؛ ومن خطب الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام الجمل وصفين والنهروان، وعن الجمل يقول عليه السلام:

«**ولَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلابِ الرِّجَالِ وأَرْحَامِ النِّسَاءِ سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ ويَقْوَى بِهِمُ الإِيمَانُ**»

ويرعف بهم: أي سيجود بهم الزمان، كما يجود الأنف بالرعاف، يأتي بهم على غير انتظار. فالموضوع هنا يعرض الاستمرارية الزمنية لفعل القتال الذي سيحظى بشواهد مستقبلية صوّرها الإمام بمن في الأصلاب، ومن في الأرحام. فليست المعركة آنية بل هي متشعبة، ولها شواهد على مر العصور والأزمان. يقول الشيخ محمد عبده: تأملت جملا من عباراته في مواضيع مختلفة وموضوعات متفرقات، فكان يُخيل إليّ في كل مقام ان حروبا

قد شنت... والمواضيع التي في نهج البلاغة كثيرة، ومنها ما يخص مواضيع السياسة والحياة والوحدة والموت،كقوله عليه السلام:

«**فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ ووَهِلْتُمْ وسَمِعْتُمْ وأَطَعْتُمْ**».

والوهل: الخوف. وهناك موضوعات اجتماعية وتاريخية وموضوعات من حيث العناصر والأفكار والمشاعر الإنسانية كقوله عليه السلام:

«**إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ وإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِه**».

يقول الشريف الرضي: ومن عجائب نهج البلاغة ان موارده في الزهد والمواعظ والتذكير والزاوجر لا تكاد تعرف بأن من كتب هذا الكلام هو فارس منغمس في الحرب مصلتا سيفه... وهذا يدل على ان الإمام كان يكتب في جميع المواضيع لسعة إدراكه في كافة الشؤون العامة، وبحقائق الكون والحياة. وهذا مما يبين ان الموضوع هو احد المبادئ المنظمة للنص.

ويراه بعض النقاد انه العنصر المؤسس له لأن خلو الموضوع يخلق فجوة نصية أي يكون حشوة النص... ثم هناك موضوع آخر من الممكن الارتكاز عليه في معرفة قيمة الموضوع هو تنوع عدة مواضيع داخل عنونة واحدة؛ ومثل هذه التنوعات تدلنا على سعة المواضيع وكثرتها في نهج البلاغة، كقوله عليه السلام في خطبة له عن ابتداء خلق السماء والأرض يذكر فيها صفات الله عز وجل:

«**الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ولا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ولا وَقْتٌ مَعْدُودٌ ولا أَجَلٌ مَمْدُودٌ**».

لكون الذات الالهية منزهة عن النعوت واشباهها، ثم يتطرق الى موضوع ثانٍ هو انشاء السماء، وكذلك موضوع خلق آدم، وموضوع آخر هو غواية الشيطان لآدم وهبوطه لدار الدنيا كقوله عليه السلام:

«**وأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّة**».

فنقله من الفطرة السليمة الى مقر خلط له الخير والشر، واختط له فيه الطريقان، ووكل الى نظره العقلي، وابتلي في التمييز بين النجدين، واختيار أي الطريقين. وتناسل الذرية امتحان لقوته على التربية واقتدارا على سياسة من يعوله...

وتطرق تحت نفس العنونة عن موضوع بعث النبي محمدﷺ ليتفرع بعد ذلك الى عدة مواضيع منها موضوعة الحج، وكشف الواقع التاريخي كقولهعليه السلام:

«**والنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وتَزَعْزَعَت سَوَارِي الْيَقِينِ**».

انجذم : انقطع.السواري: جمع سارية، أي العمود او الدعامة.

وهناك موضوعة أخرى في نفس الأهمية هي أمكانية الدراسة الموضوعاتية على خدمة التاريخ في مواجهة بين موضوعة النص، وموضوعة التاريخ، يوضح بعضها البعض بصورة متبادلة تكشف وجهاً من تاريخ الأفكار، علاوة على وجود واقعين داخل الواقع النصي؛ واقع مرجعي وواقع افتراضي.

الهاجسية في نهج البلاغة

الهاجس هو إحساس بتنويعات مختلفة، ولا يمتلك تعريفاً واضحاً متفقاً لمعناه، لكن يتفق جميع النقاد على إن الإبداع الحقيقي هو من بعض صناعة هذا الهاجس، لكونه يأتي من لحظة حسية، ويتكون بشكل يرتبط بتأثير (تجربة وموهبة المبدع)، ويعني إن الهاجس يتكون من التجربة المعاشة ومن تأثيرات (البيئة- الناس- الوقائع- الأحداث) وما يحمله المبدع من مسؤولية تحفّزه للوثوب وسط اغترابه ومعاناته وسعيه المثابر لتمثيل الذات المؤمنة، كقوله عليه السلام:

«فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ولَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لا أَعْرِفُهُ ولا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ».

بقدم مثل قدمي: جرت وثبتت في الدفاع عن الدين، والسابقة: فضله السابق في الجهاد، وأدلى إليه برحمه: توسل، وبمال دفعه إليه، وكلا المعنيين صحيح.

ولهذا تختلف مكونات الهاجس وتأثيراته من مبدع لآخر، نتيجة (الموقع الإجتماعي، ورهافة الحس، والبنية التكوينية) ولذا حاول الإمام علي عليه السلام أن يفسر لمتلقيه خفايا الواقع، ويرشده الى الصواب، ويحفزه الى موقف صبور، وليدوّن لنا تأريخاً صادقاً تحدى كل موبقات التحريف، فمن كتاب له عليه السلام لمعاوية:

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ورِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ نَمَّقْتَهَا بِضَلالِكَ وأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ وكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ ولا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ وقَادَهُ الضَّلالُ فَاتَّبَعَهُ».

الموصلة: بصيغة المفعول ملفقة من كلام مختلف، وصل بعضه ببعض على التباين، كالثوب المرقع، ومحبّرة: أي مزينة، ونمقتها: حسنت كتابتها، وأمضيتها: أنفذتها وبعثتها.

يرى معظم النقاد إن مساحة الهاجس تتسع لإحتواء عوالم إبداعية وأخلاقية، ولهذا يحتاج المبدع الى هاجس آخر يسميه النقاد **(هاجس التوصيل)** الذي من خلاله يوصل الحقيقة الى المتلقي ويمنحه رؤاه، ولو ناقشنا هذه المسألة على مستوى إبداعنا الحالي، فسنجده اعتنى في كثير من ثناياه بهاجس الإبداع، لكنه فقد الهاجس التوصيلي، وابتكر حجة النخبوية لإهتمامه بموحيات التعبير، فالمبدع عندما يهتم بتجسيد **(تجربة – واقعة – موقف)** تجسيداً حيوياً لابد أن يتناغم مع العمق والبعد الفني، ويتخطى تعقيدات التشكيل اللغوي، والملاحظ إن الإهتمام بهاجس التوصيل والإقناع لم يؤثر على فاعلية نهج البلاغة إطلاقاً، لكونه قد تناغم مع الأبعاد الفنية، متجاوزاً الإشكالات النقدية، التي ترى من توارد المشاعر المكتنزة سبيلاً للضبابية، وصعوبة الإلتقاط، وهو ما يسميه النقاد بـ**(المأزق الإبداعي)** ويعني غياب المتلقي، ويتجلى هذا الإقناع في قوله عليه السلام:

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ولَيْسَ أَمْرِي وأَمْرُكُمْ وَاحِداً إِنِّي أُرِيدُكُمْ لله وأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ وايْمُ الله لانْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ ولاقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وإِنْ كَانَ كَارِهاً»

الخِزامة بالكسر: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير، يشد فيها الزمام ويسهل القيادة.

ورغم ذلك فإن بعض المدارس النقدية لاتأتمن رأي المتلقي إطلاقاً، مع العلم أولاً: إن جميع المدارس النقدية وعلى إختلافها أقرّت حضور المتلقي في نهج البلاغة حضوراً متأصلاً لكونها تؤمن بالخطابات الجماهيرية الشفهية، لحضور المتلقي مستمعاً، وبعدها متأثراً بحالات التوارد.

ثانياً: إن الإمام علي عليه السلام ما كان يستعرض موادا فنية تعبيرية بلاغية، إنما كان يعرض للناس قضية فكر ورؤى وإيمان ومحاور مبدئية، تستنهض قيم الخير، يراها (جون كوين) إيقاظ المتلقي بهواجس خاصة من الفهم الواعي، كقوله عليه السلام في عهده الى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر:

«**فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ**».

آسِ: أمر من آسى بمد الهمزة أي سوّى، يريد اجعل بعضهم أسوة بعض أي مستوين.

وبعض المدارس النقدية الأخرى ترى: إن هواجس الوعي تقوّض بنية التلقي المسؤول، ولا يخدم الإبداع، بينما (رولان بارت) يعتبرها الميزة الأساسية للمبدعين، فمن مستكملات الهاجس المبدع هو حضور المعنى الأسمى الذي يستوعب الوعي العام المتلاحق للأجيال، كقوله عليه السلام:

«**نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ وَالْخُزَنَةُ وَالأَبْوَابُ وَلا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلا مِنْ أَبْوَابِهَا فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً**».

والشعار: مايلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

فهاجس المسؤولية يشغل الكثير من جمالية الإبداع المؤمن بإرتباطه الوجداني بالله

سبحانه وتعالى وامتداده الى حاضرٍ احتواه الإمام علي عليه السلام بإدراك مستقبلي، ولهذا نجد إحتواءه على جمالية غيبية فسّرت النتاج الرسالي بمزايا نبوءات إمام معصوم أصرّ البعض على إنها رؤى صوفية، بينما هي حالة الذوبان في المعنى الأسمى **(الهاجس الذهني)** وتعني الرؤية التي هي عمق فكري مركب **(وجداني – إدراكي)**، فمن كلام له عليه السلام يخبر به من الملاحم بالبصرة:

«يَا أَحْنَفُ كَأَنِّي بِه وقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذي لا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ ولا لَجَبٌ ولا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ ولا حَمْحَمَةُ خَيْلٍ يُثِيرُونَ الأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ والدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ وخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ ولا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا وقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا ونَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا».

قال الشريف: يومئ بذلك إلى صاحب الزنج. اللجب: الصياح، واللجم: جمع لجام، وقعقعتها: مايسمع من صوت إضطرابها بين أسنان الخيل. والحمحمة: صوت البرذون عند الشعير. وعر الفرس أي: صوته، عندما يقصر في الصهيل ويستعين بنفسه، والسكك جمع سكة: الطريق المستوي وهو إخبار عما يصيب تلك الطرق من تخريب من حواليها من البنيان على يد صاحب الزنج.

استخدامات الواقعية في نهج البلاغة

استأثر الفن الخطابي بتنويعات أدبية لها مستويات سردية وأسلوبية ونظم دلالية، واعتبر كظاهرة ثقافية نفسية تصوغ وعي المجتمع، لتنبثق من خضم التفاعلات المحتدمة، وهي أكثر نظم التمثيل اللغوية قدرة من حيث إمكانياتها في إعادة تشكيل المرجع الواقعي كسياق نصي، مثل قول الإمام علي عليه السلام:

« **قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ واحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ وقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ**».

أي: صرتم من متاهة ومضلة لا يدع الضلال لكم سبيلا إلى مستقر من اليقين، فأنتم كمن رمت به داره وقذفته. ويقال: تطاوحت به النوى، أي: ترامت والمقدار الإلهي - واحتبلكم: أوقعكم في حبالته، فهم مقيدون للهلاك لا يستطيعون منه خروجا، وينقل فيها الإمام علي عليه السلام أحداث واقعة النهروان.

وابتعاد الخطابية عن المباشرة الوصفية، جعلها نوعا سرديا حسيا... إذ يرى بعض النقاد: أن قمة الواقعية في تحليل الواقع، لا بتسجيله بطريقة الاستنساخ، أي البحث عن الواقع القائم على مجمل عناصر البناء الفني (نثر.. شعر.. حوار وسرد..) كقوله عليه السلام في خروج أبي ذر الغفاري إلى الربذة:

«إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ وخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ واهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ ومَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ».

ويعد هذا المصطلح من أوسع المصطلحات شيوعا، حيث يشمل جميع معطيات الفكر الإنساني، رغم انه من المصطلحات الفضفاضة التي تختلف مفاهيمها باختلاف ميادين النشاط الإنساني، وإمكانيات كل اتجاه تنظيري، فهناك من يعتبره دالا على واقعية الأفكار، كقوله عليه السلام:

«اعْجَبُوا لِهَذَا الإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ ويَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ ويَسْمَعُ بِعَظْمٍ ويَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ».

والشحم: شحم الحدقة. واللحم: اللسان. والعظم: عظام في الأذن، يضرب بها الهواء، فتقرع عصب الصماخ فيكون السماع.

ويعد الدكتور محمد النويهي الواقعية مرادفة للرؤية الموضوعية الايجابية، كقوله عليه السلام، وقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِه إِلَى الشَّامِ دَهَاقِينُ الأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ واشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْه فَقَالَ:

«مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِه أُمَرَاءَنَا. فَقَالَ: واللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ وإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وتَشْقَوْنَ بِه فِي آخِرَتِكُمْ ومَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ وأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الأَمَانُ مِنَ النَّارِ».

والدهاقين: جمع دهقان، زعيم الفلاحين في العجم. والانبار: في بلاد العراق. تُشُقّون به بضم الشين وتشديد القاف: من المشقة. وتشْقون الثانية بسكون الشين: من الشقاء.

وفي حال يجد الكثير إن الواقعية تلاحظ الواقع العام، وتهتم باهتمامات الشعب..

وبذور هذه الواقعية قديمة جدا، تعود إلى الطباع البشرية، وقد ظهرت بذورها عند النقاد الإغريق، وهي حسب نظرية أرسطو: حالة انتقاء من الواقع، أي: تصوير ما ينبغي

أن يكون، وذلك يعتمد على استنطاق الأوضاع التاريخية والسياسية، واستقراء الأبعاد الشعورية واللاشعورية، ومن خلال هذه الواقعية يمكن معرفة المضمون الدلالي في قوله عليه السلام:

«لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ولَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلا أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ والسَّلامُ».

وتجنى كتولى: ادعى الجناية على من لم يفعلها. وتجن ما بدا لك: أي تستره وتخفيه.

والمنجز الإبداعي يتكون من مرسل هو المبدع، والرسالة مسامع خطابية، تحولت إلى مدونات نصية، ومتلقٍ حاضر في حينه، ومتلقٍ مؤجل له استمرارية التواصل مع الرسالة، رغم تغير الظروف والمكونات الواقعية، ويعني إن هناك واقع، وهناك دلالات واقع شامل عام، وهناك استنهاض مباشر لقيم واقعية، كقوله عليه السلام:

«فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ولَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي».

بقدمي: أي التي جرت وثبتت في الدفاع عن الدين.

وثمة استنهاض جهادي متواصل، وهناك عوالم موضوعية لا تعين على جيل ومكان وزمان، وثمة عوالم غيبية وحكم ومواعظ عامة، كقوله عليه السلام:

«**أفضل الزهد إخفاء الزهد**».

وكقوله عليه السلام: «**اشرف الغنى ترك المنى**»

والمنى: جميع أمنية، ما يتمناه المرء لنفسه. وعندما يتم تحديد البنية الدالة والرؤية للعالم المنبثقة من الوعي الممكن، نقوم بتغيير تلك الرؤية خارجيا بالتركيز على العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية لمعرفة مولداتها وأسباب تكوينها.

حيوية اللغة التضادية في نهج البلاغة

تسعى اللغة التضادية، إلى تعميق الخطاب الإنساني الساعي، لحمل الوجدان القادر على ملامسة الواقع العام، ليضاعف الطاقة الشعورية المؤثرة، كقوله عليه السلام:

«**حَتى يَعُودَ أَسْفَلكمْ أَعْلاكمْ وَأَعْلاكمْ أَسْفَلكمْ ولَيَسْبقنَّ سَابقونَ كانوا قَصَّرُوا ولَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقونَ كَانوا سَبَقوا**».

ولقد سبق معاوية إلى مقام الخلافة، وكان في قصوره عنه بحيث لا يظن وصوله إليه، وآل بيت النبوة لم يبلغوا الخلافة، وكانوا أحق الناس إليها..

ويضاعف هذا التأثير عبر مفارقات ذكية، تحمل سمات الجهد المبدع، كقوله عليه السلام:

«**إذَا أَقبَلت الدُّنيَا عَلى أَحَد أَعَارَتهُ مَحَاسنَ غَيْره، وإذَا أَدْبَرَت عَنهُ سَلبَتهُ مَحَاسنَ نفسه**».

كذلك تتشكل صياغة الخطاب، في ضوء مخزون الواقع السياسي والاجتماعي والحياتي، كقوله عليه السلام:

«**وإنِّي والله لأظنُّ أنَّ هَؤلاءِ الْقوْمَ سيُدَالون منْكمْ باجتَماعهمْ عَلى بَاطلهمْ، وتَفَرُّقكمْ عَنْ حَقكمْ**»

وسيدالون منكم: أي ستكون لهم دولة تذلكم، بذلك السبب القوي، وهو اجتماع كلمتهم، وطاعتهم لصاحبهم، وأداؤهم الأمانة، وإصلاحهم بلادهم، وهو يشير إلى أن

هذا السبب متى وجد، كان النصر والقوة معه، ومتى فُقد ذهبت القوة والعزة بذهابه. فالحق ضعيف بتفرق أنصاره، والباطل قوي بتضافر أعوانه...

وتدور هذه الصياغة في ثنائيات التضاد، لعكس المعطيات العامة، معتمدة على مطاوعة اللغة العربية، وسعة معانيها، لخلق فسحة من البوح الشعوري، عبر جمل سردية، توصله إلى العمق الرؤيوي، لتصوير اللواعج الإنسانية، بآلامها وآمالها بإقدامها ومخاوفها، كقوله عليه السلام:

«**فَإِنَّ الغايَةَ أَمَامَكمْ وإِنَّ وَرَاءَكمُ السَّاعَةَ تَحدُوكمْ تَخَفَّفوا تَلحَقوا فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلكُمْ آخرُكمْ**»

يقول الشيخ محمد عبده: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله ورسوله: بكل كلام لمال راجحا، وما سمع (تخففوا تلحقوا) اقل منه مسموعا، ولا أكثر منه محصولا، وما ابعد غورها، وانفع حكمتها، والغاية تعني هنا الثواب، ومن أراد اللحاق بالثواب الجزيل، عليه أن يتخفف من الذنوب، ولا يبعث الإنسان للحساب، حتى يرد الآخرون، وتنقضي حياة الإنسان من الأرض..

فالتضاد له علاقة كبيرة بسر الحياة الإنسانية، وهو المحفز لما يؤجج تلك الدوافع، ويراها تشكل الجانب الجمالي، كما يفسره التراث المعرفي، بأن التمييز إنما يكون بالأضداد كقوله عليه السلام:

«**ضَادَّ النّور بالظلمَة والوُضُوحَ بالبُهْمَة والجُمُودَ بالبَلل والحَرُورَ بالصَّرَد مُؤَلفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِناتِهَا مُقرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا**»

والصرد يعني: البرد. ومتعادياتها: كالعناصر مثل الجزئين من عنصر واحد في جسمين مختلفي المزاج.

فنجد إن مثل هذه التضادات، تمنح المتعة المتأملة داخل كل ذات، فراحت تنهل من معين القيمة الأسمى تفسيرا لقوله تعالى: ﴿**وَنَفْس وَما سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فجُورَها وَتَقواها**﴾. فاللغة التضادية هي لغة البحث عن القيمة المضمونية (المحور) أي الديمومة التي أشار إليها ابن عربي، والقاضي الجرجاني، والنفري... ويذهب بعض النقاد إلى إن لغة التضاد، تشكل العلاقة الشعورية بين الداخل النصي، والخارج العام (المكونات الواقعية)، كقوله عليه السلام:

«**إنكم والله لكَثِير فِي البَاحَاتِ قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ**»

والباحات: الساحات.

ويرى الجرجاني: إن الإبداع الحقيقي يكمن في عملية توليف بين المتناقضات، فنجد ثنائيات تضادية كثيرة، وردت في نهج البلاغة مثل (**أول ×آخر ــ ظاهر × باطن ــ عزيز× ذليل ــ قوي × ضعيف ـ الموت × الحياة ــ القدرة × العجز**) ومن تلك المتنافرات يتم انجاز وحدة موضوعية متناغمة، كقوله عليه السلام:

«**فَيَعْلَمُ الله سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وسَخِي أَوْ بَخِيلٍ وشَقِي أَوْ سَعِيدٍ**».

وتلك هي ابرز سمات الإبداع، وترى بعض المدارس النقدية، أن نتيجة أي تضاد، سيكون عبارة عن رؤية (وجهة نظر) تعبر عن توترات الواقع، وعلاقاته بين فلسفتي (الولادة - الموت) ومعاناة الوجود، بما يتيح التأثير الفاعل في وجدان المتلقي، كونه ينطلق أساسا، كما يرى نقاد الأدب من الوجدان كقوله عليه السلام:

«**وقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلوا وكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْوا**».

وأما أهل الفلسفة، فيرون إن الإنسان نفسه يشكل علاقة بين تضادين؛ عامل ذكوري وعامل أنثوي. بينما أصحاب المدرسة النفسية؛ يجدون إن التضادات، تقع في دائرة المدرك بالحواس، وتقبل الوصف والتفسير،كقوله عليه السلام:

«**أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثقَلِ الأَكْبَرِ وأَتْرُكْ فِيكُمُ الثقلَ الأَصْغَرَ**»

والثقل كما يراه الرواة بمعنى: النفيس من كل شيء. وفي الحديث الشريف: (إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي) أي: النفيسين...

بينما البعض من أهل النقد، يؤكد إن التضاد انتماء يبحث عن تجاوب شعوري، كقوله عليه السلام:

«**وإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَابَ وغَداً حِسَابٌ ولا عَمَلَ**»

ومن جماليات هذا التضاد انه دائما يسبب الخروج من المألوف، ومن أسار المنطق إلى النائيات، دون الإيغال في التجريد. بل تزيد في علاقتها بالوجود وبالصفاء من العيش، كقوله عليه السلام:

«**أَلا وإِنَّهُ مَنْ لا يَنفعُهُ الحَقُّ يَضُرُّهُ البَاطِلُ**».

□

دلالات الحيوان في نهج البلاغة

ترتبط قضية الإبداع، بمجمل المؤثرات المترسبة في الوعي الإنساني، وتكون شيئا مهما في الواقع اليومي، إذ تتفاعل مع حياة الناس، وادراكاتهم. وفي ظل هذا الإدراك، تكون الدلالة أسلوبا تعبيريا، يحمله المنجز الفني كآلية من آليات المضمون، كقوله عليه السلام:

«**وأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ**»

والحابس: من حبس ناقته، وعقلها حيرة منه، لا يدري كيف يهتدي، فيقف عن السير. وأنار له علما: أي وضع له نارا في رأس جبل ليستنقذه...

فيرى معظم النقاد؛ إن الاستشهاد بالحيوان، له دلالة تعبيرية قريبة عن فهم المتلقي العام، بما يتناسب واختلاف البنى الفكرية، من أجل خلق تأثير متواصل، يؤهله كمعنى للبقاء المثالي كقوله عليه السلام:

«**فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ والْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ**»

أو كقوله عليه السلام: «**وايْمُ اللهِ لانْصِفَنَّ الْمَظلومَ مِنْ ظَالِمِهِ ولاقودَنَّ الظالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وإِنْ كَانَ كَارِهاً**»

والخزامة: حلقة من شعر يجعل في وترة أنف البعير، ليشد فيها الزمام، ويسهل قياده...

ثمة تراكمات هائلة التفاصيل، تنهل من خصائص كل حيوان وميزته، لموائمة المعنى أي إن تخصص الدلالة، سيوسع من حرفيات المعنى، فالحيوان بشكل عام، لا يعطي مضمونا محددا، مثلما نستشهد بالذئب أو الجمل أو الشاة، ولا يظهر المعنى إلا في السياق الجملي كقوله عليه السلام:

« **أَمَا والله لقَدْ تَقَمَّصَهَا فلانٌ، وإِنَّهُ لَيَعْلمُ أَنَّ مَحَلِي مِنْهَا مَحَلُّ القُطبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيلُ ولا يَرْقَى إِلَيَّ الطيْرُ**»

يتمثل بسمو القدر وقربه عن مهبط الوحي، وما يصل الآخرين لابد أن يتدفق من حوضه، ثم ينحدر عن مقامه العالي، الذي لا يرقى إليه الطير وهي دلالة على الرفعة. أو قوله عليه السلام:

« **فَمَا رَاعَنِي إلا والنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ**»

دلالة على الكثرة أو قوله:

«**فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ لا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ**»

دلالة على الضعف. أو قوله عليه السلام:

«**تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ**»

دلالة على الغطرسة.

والعمل الفني لا يعني مجرد تجميع هذه الخصائص، بل يسعى أحيانا لخلق مغايرات بنيوية قادرة على إعطاء المضمون المدرك، كقوله عليه السلام:

«**الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ**»

اللسبة تعني: المعشر. وقيلت للدلالة على الغدر، لان المعلوم إن العقرب ليس حلو المعشر، بل يعني المرأة، ليعرف السمة غير المأمونة...

وتساهم خصائص الحيوان وصفاته في توليد الدلالة، بتماثل حي واعي... ويشكل هذا التماثل بعداً جماليا، لكونه يحول المعنى إلى نسق تعبيري، يستند إلى التأثير الدال الذي تمثله الدلالة كمكون اشاري:

«**إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ**»

نافجا حضنيه: رافعا لهما، والحضن ما بين الإبط، ويقال للمتكبر والمتخوم. والنثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف. والخضم: على ما في القاموس الأكل أو بأقسى الأضراس، أو ملء الفم بالمأكول أو خاص بالشيء الرطب... والقضم: الأكل بأطراف الأسنان أخف من الخضم...

ومثل هذا الطرح يغير نمطية المباشرة، إذ تختفي الحقيقة خلف مظهر اللغة، حسب مواصفات الكيفية التي يعني بها ويدل بواسطتها، كقوله عليه السلام:

«**وأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وتَأْكُلُونَ الْجُشِبَ وتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُم**».

ووصف الحيات بالصم، لأنها أخبثها إذ لا تنزجر، وارض العرب والجزيرة خشنة، تكثر فيها الأفاعي والحيات، فأبدلهم الله تعالى منها الريف، ولين المهاد، والجشب هنا: الخشن من الطعام... فاللغة في المضمار الاستدلالي تنتظم في تنوعات مختلفة، ومعايير مختلفة، حسب مواضيعها، كقوله عليه السلام:

«**ولالْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**»

ما تنثره من انفها، ويقال النطفة أيضا.

الاستدلال بالحيوان كان متداولا لتعريف الزمان والمكان والحدث، (كعام الفيل، وجبل السنام، وحرب الجمل) لكن ثمة خصوصية فكرية، كونها تنحى المنحى الرؤيوي في نهج البلاغة كقوله عليه السلام:

« **تَرْكَبُ أُوْلاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا وتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا**»

والهيم: العطاشى من الإبل، أو قوله عليه السلام:

«**وحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ**»

دعق: منع وطئه وطئا شديدا. ودعق: بث، والدعق: هنا الدق أي تدق الخيول بحوافرها أرضهم...

ومثل هذه الاستقراءات تحفز على معرفة الواقع المعاش، بكل نزعاته وميوله ومخاوفه وناسه. ومثل هذه الدلالات يكون لها نبضها الفكري والحياتي، ومديات الرؤية عبر هذا التماثل تشكل أدق أحاسيس التجسيد الواعي، الذي يذهب بموازاة الموعظة غير المباشرة، كقوله:

«**وإِيَّاكُمْ والْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ**».

وهذا في حقيقته وعظ إرشادي، يشجع الوحدة، وينهي عن الفرقة أو نجد قوله عليه السلام:

«**ويَعْتَقِبُونَ الْخَيلَ الْعِتَاقَ**»

أي: يحتبسون كرائم الخيل، ويمنعونها غيرهم، ويحث على نبذ الجشع. فنجد أن المكونات الجزئية لدلالة الحيوان، تحتاج إلى فهم خصائص الحياة (كريم المضمار، رفيع

الغاية، جامع الحلبة، منافس السبقة) أي إذا سوبق سبق، والحلبة خيل تجمع للنصرة، السبقة جزاء السابقين...

والغاية المنشودة من هذه الاستدلالات، هي قيمة المعالجة، أي القصد المؤثث، ولهذا تكون جامحة وفنية، تحتويها أفكار ناضجة، استقاها المبدع من عموميات الحياة المعاشة...

□

استرجاعات الذاكرة في نهج البلاغة

تكمن حيوية المنجز الإبداعي في فاعلية الكشف عن بؤر نشطة تكتنز الكثير من استرجاعات الذاكرة، لكونها تسعى لتفعيل المعنى **(الماضوي)**، كقوله عليه السلام:

«وَ إِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ ودَماً هُمْ سَفَكُوهُ»

ويتسع مفهوم الذاكرة بعدة أمور مهمة في علم النفس، ومنها استرجاع تجربة محددة من الماضي،كقوله عليه السلام في قضية الحكمين:

«فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ ولا يُجَاوِزَاهُ وتَكُونُ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ فَتَاهَا عَنْهُ وتَرَكَا الْحَقَّ وهُمَا يُبْصِرَانِه».

والجعجعة: هي جعجعة البعير، إذا برك ولزم الجعجاع أي الأرض، أي أن يقيما عند القرآن.

ونجد إن معظم الأدب الخطابي يعتمد على استحضار قيم الماضي، لتكون معين تجارب ومواعظ مبرهنة، لكن الملاحظ في خصوصية نهج البلاغة، والتي لابد أن تراعي مثل هذه الخصوصية التي منحتها مكانة المبدع الإنسانية والقيادية، فذوبت المنحى الذاتي

وسط مرتكزات الهدف الموضوعي العام، فأصبح محتوى الذاكرة معبرا عن ذاتية مقدسة مسؤولة تحمل الكد الشمولي. ولواعج الذاكرة هنا لواعج امة ومصير دين، كقوله عليه السلام:

«فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلادِهَا تَقُولُونَ الْبَيْعَةَ قبضْتُ كفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا ونَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا».

والعوذ بالضم جمع عائذة: وهي الحديثة النتاج من الظباء والإبل أو كل أنثى. والمطافيل جمع مطفل بضم الميم وكسر الفاء: ذات الطفل من الإنس والوحش.

وقد أشار معظم النقاد إلى موارد الاسترجاع في جميع المحاور الأدبية، كخاصية نفسية لها انعكاساتها المؤثرة على التجربة الإبداعية. فنجد إن المحور العام للأبنية المتنوعة في نهج البلاغة، دعمتها استثنائية التجربة الحياتية الغنية بالمعاني، فالمجس النفسي- هو مجس شعوري، يكشف عن مكونات تاريخية كونه صاحب حق مسلوب، وهذا الحق هو جزء هام من المحور الكلي للعالم الواقعي المعاش، ويمكن ملاحظة المسعى المثابر لإخضاع العوالم النفسية كرافد إبداعي، يتمثل في حقه الدفاع عن الحق وكشف زيف الباطل، برؤى إبداعية تحرض الحاضر للنهوض بمهامه، وتكشف للمستقبل مكونات ماض معاش، قوله عليه السلام:

«أُفٍّ لكُمْ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً يَوْماً أُنَادِيكُمْ ويَوْماً أُنَاجِيكُمْ فَلا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ ولا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ»

برحا يعني: شرا أو شدة. والنجاء: الإفضاء بالسر، والتكلم بشخص بحيث لا يسمع الآخر.

ويأتي استفزاز الذاكرة من خلال استحضار قيم شبيهة أو استثمار الطاقة (الزمكانية) ومكونات الشخوص سواء إن كانت سلبية أم ايجابية، فكل مكون له أثره الشعوري

ومنحاه النفسي-، ويساهم كلاهما بشكل كبير في إحداث التاريخ وبلورة المعنى الأوفى للمنجز الإبداعي كقوله عليه السلام حين غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفين، ومنعوهم من الماء:

«ألا وإنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَّةً مِنَ الْغُوَاةِ وعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ».

واللمة: الأصحاب في السفر. وعمس الكتاب: أخفاه.

ويرى بعض النقاد: أن لا شيء أكثر ارتباطا بالمستقبل من استرجاعات الذاكرة، لكونها تقدم العمق الانتقائي الذي لابد أن يكون له تماسات كبيرة مع الواقع المعاش. فالموقف الذي يحتاج إلى الذاكرة هو لابد أن يكون ذات خصوصية استثنائية، تحمل بذرات من ذلك الماضي المسترجع. وهنا لابد أن تتبلور خصوصية المولى سيد الأوصياء من حيث العصمة التي ستبعد هذه الانتقائيات عن الخطل.

والمساحة الإبداعية التي شغلها الإمام علي عليه السلام لابد أن تكون هي المنهل لمثل هذه الاشتغالات، وخاصة الدقيقة منها، فحجم التغيرات السياسية في الأمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله خلقت صراعات من نوع آخر غيرت عناوين كثيرة، قد تكون أصعب، إذا ما قيست بالعناوين بعيدا عن الجوهر. فالصراع الرسالي الذي كان بين الإسلام والكفر، أصبح بين الإسلام والإسلام.وهذا المعنى يصل بنا إلى تبني المشروع الرسالي من حيث استرجاعات الذاكرة التكوينية، والتصاق هذا المنجز بصاحب الرسالة المحمدية، لكشف قيم التناحر الفعلية، والتي لا تختلف عن الجوهر القديم، يقول الإمام علي عليه السلام:

«**ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهﷺ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي ولَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُﷺ والْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ مَلأ يَهْبِطُ ومَلأ يَعْرُجُ ومَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عليه**»

. الأفنية**:** جمع فناء**.** والهينمة**:** الصوت الخفي**.**

ويمكن بتحليل هذا الاسترجاع أن نحصل على ثيمات كثيرة، منها القرب من رسول اللهﷺ والقرب من ملائكة الله تعالى، والقرب من مسؤولية حمل رسالة الخلافة**...** وهذا هو الجذر الأساسي لمثل هذا الاسترجاع المرتبط بأساسيات المستجد من الصراعات، كقولهعليه السلام**:**

«**اللهمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وسَمِعَ وأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلا رَسُولُ اللهﷺ بِالصَّلاةِ**» **.**

مصطلح الإشارة في نهج البلاغة

يكتسب النص البلاغي هويته المتجددة، من سياقاته المتعددة، مما يحق لنا ان نشكك بالمناهج النقدية. فمن يا ترى يقرأ من؟ هل نحن من يقرأ بلاغة الامام علي عليه السلام؟ أم بلاغته التي تقرأنا؟ فلابد لنا من البحث عن كيفية اكتساب تعددية النص البلاغي القرائية، وانفتاحاته على فضائيات متجددة، حتى بدت تشكلات اللغة، تحمل نظما اشارية تعبّر عن الأفكار. ولهذه النظم الكثير من الغموض والتشويش، كمصطلح اشار اليه اهل النقد بانه عصيٌ جدا على التعريف.

فـ(قدامة بن جعفر):ـ اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة باللمحة الدالة.

فهذا ما نراه جليا في قول سيدي ابي الحسن علي عليه السلام:

«**فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلا سَمَلَة كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَة كَجُرْعَةِ الْقُلَةِ لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ**»

فالسملة: بقية الماء في الحوض. والاداوة: المطهرة، اناء الماء الذي تطهر به. والمقلة: هي حصاة يضعها المسافرون في اناء ثم يصبون الماء فيه ليغمرها، فيشرب كلٌ منهم مقدار ما غمرها، لا يزيد احدهم على الآخر في نصيبه. يفعلون ذلك إذا قلّ الماء، وارادوا قسمته

بالتساوي. والتمزز: يعني الامتصاص قليلا قليلا. والصديان: العطشان. وقوله لم ينقع: أي لم يرو العطشان.

ومصطلح الإشارة عند (العسكري): هو اللفظ القليل يشار به الى معانٍ كثيرة، بايماء اليها ولمحة تدل عليها.

فلقد أشارت الاتجاهات الحديثة في علم اللغة على اعتبار الاشارة مفهوما عاما، يخرج عن كونه مجرد اشارة لفظية او معنوية، لانها شيء يخبر بشيء آخر، ويحل محله. وهذه عندنا نوع من انواع الازاحة، كقوله عليه السلام:

«فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا»

أي تتزاحم عليه، ليبايعوه رغبة فيه. والهيم: العطاش من الابل، ويوم وردها يوم شربها. فهنا تمّت إزاحة المورود الذي هو الماء بشخصه عليه السلام، وإزاحة لهفة الناس بعطاش الإبل، حيث ان في الجملة شيئا يخبر بشيء آخر كما اسلفنا، وهي قضية إجماع الأمة على بيعة الإمام عليه السلام.

فموضوع الإشارة موضوع كبير، اختلطت اوراقة، ولا نستطيع من خلاله ابدا معرفة الشيء في ذاته، لاننا نعرف فقط العلامة التي هي دليل عليه او علامة لموضوعه.

يحدد (بيرس) في علم الإشارة أو ما يسمى عند الغربيين بـ(السيموطيقيا) ثالوث التواصل الاشاري المعاش (المثول) يحيل إلى المحسوس (الموضوع) يفسر وفق المتخيل (المؤول) كقوله عليه السلام:

«إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله تَفْوِيقاً والله لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لانْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ»

ويفوقونني: تعني يعطونني من المال قليلا قليلا كفواق الناقة، وهي الحلبة الواحدة

من لبنها. والوذام: جمع وذمة، وهي الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.. والحزة بالضم القطعة.

وفسرت الوذمة بمجموع المعى والكرش..

وربط الإشارة بموضوعها يبرر وجودها بما يسمى (المعرفة المفترضة) التي تسمح باضافة معلومات خاصة بالموضوع. وللإشارة مسالك متعددة تفضي الى موضوعات كثيرة على الرغم من ثباتها، لان تمثلها خارج عن استيعاب ما يوفره الموضوع، ضمن دائرة تمثيلية واحدة، يراها النقاد: (قصور العلامة). بينما نجدها عافية العلامة، لكونها تنثر نثارها على مواضيع الذاكرة ومرجعياتها، ويتجلى ذلك واضحا في قوله عليه السلام:

«**وظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِه وأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِه**»

وظلف: أي منع. وأرجف الذكر: ارجف به أي حركه. ويروى (أوجف الذكر) بالواو: أي أسرع، كأن الذكر لشدة تحريكه اللسان موجف به، كما توجف الناقة براكبها.

ويرى بعض أهل النقد: ان الإشارة لا تصاغ بُنيتها، إلا عبر ربطها بإشارة أخرى، طالما هذا يستدعي الى سلسلة لا متناهية من الإشارات. في حين يرى البعض الآخر من النقاد، ان الإشارة عملية توسط بين الممثل والموضوع. ويبقى الحكم الاخير للاشارة انها تجمع بين الدال والمدلول.

□

مصطلح النص في نهج البلاغة

رغبة في تجاوز المفاهيم التقليدية، حاول النقاد ولوج الدراسات النقدية الحديثة، والسعي إلى آفاق المعرفة العلمية، ومحاولة تجاوز الإشكالية التي طرحها مفهوم **(نص)** ففي معجم لسان العرب يحمل دلالة الرفع: أي المرجع، وابن منظور: اقصى السير، والزمخشري يراه الإرتفاع، أما الشافعي فهو يراه خطاباً يعلم ما يراد به من الحكم. وبذلك فإن النص لدى أغلب الأصوليين يقترن بالتعيين، ونفي الإحتمال واستبعاد التأويل، وإلغاء إي دلالة يتضمنها المفهوم. وظهوره في الثقافة العربية ظل يواجه فعالية الوصف والإستقراء والتحليل، وفي المعاجم العربية ورد هذا المصطلح بمعانٍ مختلفة وتعريفات تختلف في دلالتها، وأما مصطلح **(نص)** في اللسانيات فهو يقابل الدلالة اللغوية، ويحيل على النسيج الذي هو عندنا بمعنى الحبكة، كقوله عليه السلام:

«**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا**»

العنود: الجائر، الكنود: الكفور، القارعة: الخطب يقرع من ينزل به أي يصيبه.

فالنص استخدم عند **(**قرياس وكورتيس**)** للدلالة على كل ما مدون وملفوظ، وهو وحدة لغوية وليست نحوية. أما **(**جورج مونان**)** يقرن دلالته بضرب من تركيب الألفاظ من علامات لفظية واشارات كتابية، بإعتباره معادلا للمتن. وعند **(**فوكو**)** اعتبره

انموذجاً فلسفياً يلج مجال المعرفة العقلية، كقوله عليه السلام لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه لما أخرجه عثمان الى الربذة عنوة:

« **يَا أَبَا ذَرٍّ... ولَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَى الله لَجَعَلَ الله لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً لا يُؤْنِسَنَّكَ إِلا الْحَقُّ ولا يُوحِشَنَّكَ إِلا الْبَاطِلُ فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لاحَبُّوكَ ولَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ**»

لو قرضت منها: لو قطعت منها جزءاً واختصصت به نفسك، أي لو رضيت أن تنال منها. ويراه الباحث عبد السلام المسدي: يعني اللغة المحمولة، فإنه أراد الإقتراب من جملة من المصطلحات، ومنها المقولة والمحمولة، وعندنا (المقول) يعني الملفوظ، و(المحمول) يعني المأول، يقول عليه السلام:

«**أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ وعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ وضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ**».

عرج عن الطريق: مال عنه وتنكبه، وضعوا تيجان المفاخرة عن رؤوسكم: أي طأطئوا رؤوسكم تواضعاً، ولا ترفعوها بالمفاخرة إلى حيث تصيبها تيجانها.

والغريب أن الباحث محمد مفتاح مد النص في دراسته (ديناميكية النص) إلى استراتيجية التناص والذي هو: النص الذي يتكئ على نص أسبق، كقوله عليه السلام. للمغيرة بن الأخنس:

«**يابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع**» فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾.

ويرى (رولان بارط) وسواه من السيميولوجيين: انها تحمل جملة من السمات، ومنها قوة التحول والتعدد الدلالي وسمة الإنفتاحية ولذة النص، يقول عليه السلام:

«**فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ وفَازَ عَمَلُهُ فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا واعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ وقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ**»

المهل: التقدم في الخير، أي فاق تقدمه الى الخير على تقدم غيره. اهتبل الصيد: طلبه، والضمير في هبلها للتقوى لا للدنيا، أي اغتنموا خير الدنيا. الوفز: العجلة، وجمعه أوفاز، أي كونوا منها على استعجال، والظهور: ظهور المنايا، أي أحضروها للزيال: أي فراق الدنيا.

ونجد أن مفردة (لذة النص) تعني الإنفتاح على المساحة الجمالية في طرح المفهوم الجمالي، يقول عليه السلام في وصف دولة بني أمية:

«**حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا وتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ولا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا ولا سَيْفُهَا وكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً**»

. المجة: قطرة العسل تكون في أفواههم، كما تكون في فم النحلة يذوقونها زماناً ثم يقذفونها.

الفهرس

الفهرس

الإستدلالية في نهج البلاغة ٣

البسيكولوجيا في نهج البلاغة ٧

الحداثوية في نهج البلاغة ١١

الرؤية في نهج البلاغة ١٥

المحور الزمني في نهج البلاغة..... ١٩

المفهوم الجواري في نهج البلاغة ٢٣

الموضوعاتية في نهج البلاغة..... ٢٧

الهاجسية في نهج البلاغة ٣١

استخدامات الواقعية في نهج البلاغة..... ٣٥

حيوية اللغة التضادية في نهج البلاغة..... ٣٩

دلالات الحيوان في نهج البلاغة..... ٤٣

استرجاعات الذاكرة في نهج البلاغة ٤٩

مصطلح الإشارة في نهج البلاغة ٥٣

مصطلح النص في نهج البلاغة..... ٥٧

الفهرس ٦١